

جوامع النجف الأشرف

للشيخ ضياء الدين الدخيلي

من ذكرياتي التي أتمش كلها حلقت في سماها سويحات ممتعة ألفت فيها محاضرة على زمرة من أساتذة العالم العربي في مدرسة ، طالما حنت أضلاعها على جهابذة قادوا الرأي العام الإسلامي وبقوا مصاييح هداة في عصر كانوا هم المهيمين على جميع مقدرات أمة القرآن . منذ بضع سنوات طرق النجف الأشرف وفد الجامعة المصرية وفي طليعته الأستاذ أحمد أمين والأستاذ الزيات حين كان رسول الأدب إلى عاصمة المأمون . إذ ذاك تحفزت لمقابلة تلك البقريات اللامعة التي أنفقت ليالي في الاستمتاع بشمراتها الننية بالفداء الروحي ؛ ما هي إلا خطوات أتلتها الخواطر والعزيمات حملتي أن أعاد مدرسة السيد كاظم البزدي (إحدى المدارس الإسلامية الكبيرة في النجف الأشرف) لاستقبال موكب الثقافة ، وإذا بجلبته تملأ مدخل المدرسة

هذا هو نصيب جده من العظمة ومن جاء الحياة ؛ ولكن متى كان الإنسان بمجدوده وآبائه ؟ وأي فضل لامري يرث الجاه ولا يكسبه ويُعطي العظمة ولا يبينها ؟

تلك هي حياة « أيب » وذلك هو محيطه وهو في السابعة . أجل هي تلك حياة رئيس الولايات المتحدة في أولى مراحلها في أحراج مقاطعة كنتوكي حيث لا مدنية ولا تطيم ولا رقاهة ؛ كلا ، بل لقد ذهب الغلام إلى المدرسة في خاتمة تلك الرحلة ؛ ولكن أية مدرسة هي ؟ كانت كوخاً من كتل الخشب أقيم كما أقيم كوخه الذي يعيش فيه ، وكانت تتمد عنه نحو أربعة أميال ، وكان يذهب إليها كلما استطاع أن يطلقه أبوه من أعمال التجارة في الغابة فيجلس ساعات مع الصبية على الأرض إلى معلم يعلمهم الهجاء بأن يناولهم كتاباً واحداً يمر عليهم جميعاً الواحد بعد الآخر فيتعلمون الحروف ورسمها ونطقها ؛ ويسأل الصبي نفسه في لهفة شديدة متى يستطيع أن يكتب ويقرأ كما تفعل خالته وأمه ؟ إن ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه

الضيف

(يبيع)

الشالي ، فوفقت تحت مصباح زيتي يلفظ أشمته الباهتة كأنه رمز عصر ينقرض ؛ في سكون المدرسة الذي زاده اعتكار الليل وروعة المفاجأة - هية وجلالاً - وقت أحدث أفلاذ القاهرة عن قطعة من جسم مرزقته الحوادث القاسية عن الحركة العلمية والأدبية في هذا البلد الطيب ، أحاطوا بي يصفون إلى وقد تألفت القلوب الخفاقة وألهمت المواطف دم المروبة الإسلامية فكلنا بهالة من روابط روحية قدسية . وتمضى الأيام وإذا بساحة السيد أمين الحسيني ورفيقه دولة محمد علي علوبة زوراننا فأجتمع بهما في نفس البنية لأحدثهما عن حياتنا الدراسية ، فأجد في إقبالها وإبهاجها طلائع الوحدة المربية الإسلامية تتجلى متجلية هذه النزعة للتعارف والتآلف والتضام ؛ وحقاً إن الحركة العلمية في هذه البقعة وأساليب الدراسة - ذات أطراف وأفانين شائقة تتطلع لتفرسها النفوس تواقه لما فيها من ضرايا وصفة خاصة وليدة عوامل عديدة لم يجتمع لغير هذه المعاهد ، فقد لاحظت ذلك حتى في التريين إذ جاءنا سرب من الأمريكان والانكليز منذ أيام فزاروا المدرسة وبيئت لهم طرفاً من سير الدراسة وترجمت لهم إلى الانجليزية حديث بعض إخواني من أساتذة ذلك المعهد ، فأثار الوضع إعجابهم ولم نشعر إلا بآلات التصوير صوت شطرننا تلتقط المشاهد المختلفة كأنها تحاول أن تلتقي علينا درساً عن تقديس السياح الغربيين للمادة المحسوسة في موضع لم يكثر فيه أبناء مصر وسورية لغير روحياته ، ولم يكن بين الشرق والغرب من شذوذ وفوارق ؛

الحياة المدرسية في حاضرتنا متشعبة الأطراف ، حسب أن أزودك منها بقطعة المعجلان ولحمة الطائر ، مخططاً لك فكرة عامة سوف أشفعها بتفصيل وان قد برضى الأستاذ علياً الطنطاوي ومن شاطره رغبته

يزدحم في جوامع النجف الأشرف ألوف المهاجرين لانتجاع الثقافة الإسلامية قد امتطوا ظهور الأسفار من كل حدب وصوب من شتى الأقطار الشيعية . ففيها المشرات من سورية من جبل عامل وغيرها ، والألوف من مختلف أنحاء إيران وفيها من سمرقند وبخارى وغيرها من تركستان ، وفيها من أذربيجان وفيها الكثير من الهند والأفغان وهضبة التبت ، هذا عدا من يرتادها من أطراف العراق ومن شيعمة الحجاز . لذلك قد شيدت في النجف الأشرف

علم الفقه وكثرت المؤلفات فيه وفي أصوله
 نبدأ بدراسة (العالم) في أصول الفقه للشيخ حسن ابن
 الشهيد الثاني نظم إليها كتاب (الشرايع) في الفقه للمحقق
 الحلبي ثم ندرس (القوانين) في الأصول للمحقق القمي مع (شرح
 اللمعة دمشقية) في الفقه والأصل للشهيد الأول والشرح للشهيد
 الثاني ثم ندرس (الكفاية) في الأصول للشيخ ملا كاظم
 الخراساني ثم في الأصول العملية (رسائل) للشيخ مرتضى
 الأنصاري مع كتابه في الفقه (المكاسب) ولا يفتق الطالب بهذه
 الكتب بل يكتب الترداد على المصادر الأخرى للتوسع فيطلاع في
 الأصول (بجز الفوائد في شرح الفرائد) وحاشيتي سلطان
 والشيخ محمد تقي على العالم و(حقائق الأصول) و(عدة) الشيخ
 الطوسي و(أنيس المجتهدين) و(تشریح الأصول) للشيخ ملا
 علي البهاوندي و(خزائن) الدرر بندي و(منهاج الأصول) و(غاية
 المسئول) و(شرح العضدي) و(تهذيب الأصول) إلى غير
 ذلك من الكتب السديدة في الأصول التي قضيت في دراستها
 زمناً ذهبياً (بأوراقها الصفراء) ونطالع في الفقه (جواهر الكلام)
 وهو في عدة مجلدات من أهم الكتب يتوسع مؤلفه كثيراً في
 أبحاثه ولا يترك مذهباً في المسألة لا ينقد أدلته ، و(الحدائق)
 و(المسالك) و(المدارك) و(البرهان الفاطمي) و(تذكرة العلامة)
 و(قواعده) و(سرائر) ابن ادريس و(الرياض) و(مستند
 الشيعة) و(مختلف) العلامة و(تحريره) و(جامع المقاسد)
 و(جامع الأعرجي) وشرح منظومة بحر العلوم و(كشف
 الغطاء) و(المبسوط) و(طهارة) الشيخ وهو مجلد واحد ، وقد
 وجدت للعلامة الشيخ دخیل كتاباً في عشرة مجلدات أسماء
 (بأنوار الفقاهاة) وإن هذه المجلدات العشرة كلها تبحث في
 فصل واحد في الفقه وهو فصل الطهارة فيأله من توسع في البحث.
 وبعد دراسة كتاب (الرسائل) في الأصول يحضر دروس
 العلماء الكبار الذين يحاضرون في التشريع الاسلامي وأصول
 الفقه متخللة أبحاثهم جولات في علم الرجال وفي التفسير والفلسفة
 (التي يدعوها هنا الحكمة) إذ يرتفع المجتهد على منبر عالٍ حيث
 يزدهم تحته الثقات من الرؤوس (البيضاء والسوداء بماءها) تلك
 الرؤوس التي هذبها الدراسات الفردية فمادت لا تستند إلى كتاب

المدارس المدينة ذات الغرف المدة لا يوياء الغبراء حيث يكفل
 المجتهدون (وهم أئمة الشيعة الذين يرجعون إليهم في بيان أحكام
 دينهم مستنبطها من القرآن والحديث وأسس التشريع
 الاسلامي) ضان معاشهم وتجهيزهم بأهبة الدراسة ، يتفقون
 عليهم من بيوت المال التي تصب فيها الشيعة الذهب والفضة من كل
 ناحية وجانب باسم الزكاة والخمس وحق الإمام وأتلات الموق
 وغير ذلك من الوجوه الشرعية



تؤذج من مدارس النجف وهي صورة القسم الشمالي من المصحح العلوي المقدس

يبدأ الطالب بدراسة النحو والصرف فيكتب على الأجرومية
 ثم شرح القطر لابن هشام ، ثم شرح ألفية ابن مالك لابن
 بدر الدين (هذا منهاج الطلاب العرب ، أما القرس فيدرسون
 كتباً بعضها بالفارسية يلها مجلد باسم جامع التقديمات ، ويدرسون
 شرح السيوطي لألفية ابن مالك) ثم يتناول الطالب معنى اللبيب
 لابن هشام ، ثم يشرع في المنطق فيدرس حاشية الملا عبد الله على
 منطق التهذيب ، ثم شرح الشمسية ، ويتوسع بشرح الطالع
 ومنطق إشارات ابن سينا وشرحه وكتب كثيرة كحاشية الخبيصي
 ومختلف كتب المنطق مجهداً نفسه بمراجعة الشروح والحواشي
 عليها بأسلوب ودراسة لا تعرف النظرة السطحية ؛ ومن ثم ينكص
 قافلاً إلى الأدب فيدرس شرح التفتازاني المطول لتلخيص المفتاح
 في المعاني والبيان والبديع ويتوسع بمراجعة الإيضاح ومفتاح
 العلوم للسكاكي ، وشرح السيد الشريف للقسم الثالث منه ، ولا
 يذر مؤلفاً في البيان إلا ويوسمه تحجيماً
 وبعد علوم البيان يخوض الطالب غمار التشريع الاسلامي
 وقد سبب افتتاح باب الاجتهاد عند الشيعة أن تشمت أطراف

في حلقتين كبيرتين تضم العراق والفارسي والتركي والسوري الخ كأنها سفينة نوح في الأساطير، كان كل من هذين الأستاذين مفتوناً بسعة اطلاعه في المذاهب الفلسفية وما تبعه العقل البشري من أحابيل وأضاليل وما كشف النقاب عنه من حقائق ناصية فكانا غفر الله لهما يركضان بنا في ميادين واسعة من أفكار فلاسفة اليونان من مشائين وإشراقين ومن حاجات فرق المسلمة وطوائفها من أشاعرة ومعتزلة وشيعة وصوفية وباطنية حلولية إلى غير ذلك؛ فاذا حي الوطيس بين هذه المذاهب فليس عليك إلا أن ترهف سمك ليفيض عليك هذان الأستاذان بخلاصة جهودها الفكرية، ألا أزيدك أن النجف الأشرف في هذا العصر تدرس الطب اليوناني القديم وفيها أطباء من خريجي جوامعها يعالجون الأمراض المختلفة حسب تعاليم شرح النفس في الطب وغيره؛ وفي جوامع النجف الأشرف يدرس علم الهيئة والفلك عدا العلوم الرياضية الأخرى؛ أما علوم الأدب من لغة وعروض وقافية وتاريخ أدب وشرح النصوص الأدبية، أما التاريخ الإسلامي والعلوم الاجتماعية، فإن طلبة جوامع النجف الأشرف لا يتركون كتاباً جديداً إلا ويقتنونه موسيه بحثاً وإنعام نظر، وقد خرجت هذه المدرسة كثيراً من الشعراء النابغين

والمكتبات في النجف كثيرة منها الخصوصية وبعضها يفتح لعامة الناس كمكتبة آل كاشف الغطاء ومكتبة المعارف. وعندى مكتبة تضم حوالي ألف كتاب. كثير منها مخطوط عزيز، وقد زارها البهائي عبد العزيز اليميني الهندى الملقب على أمالي القالي فرأى كتاباً مخطوطاً قديماً أعجبه فقال: «لوضربت آباط الإبل إلى الصين ولم أحظ بغير رؤية هذا الكتاب لكفاني ذلك غمنا» وإن الطلبة هنا مشغوفون باستشراف الحركات الأدبية في العالم العربي من مصر وسورية والمهجر، ولؤلؤات (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سوق رائجة لدينا

ولكننا لا يسعنا أن نفيض في الحديث أكثر من هذا فيميل القارى الكريم وإنما هذه نبذة تحدثت بها بصفى أحد خريجي هذه الجوامع المقدسة

ضياء الدين الدهلي

(النجف الأشرف - العراق)

فتفحه بينها وبين أساندها كما كانت في الأول، وإنما يتناول المجتهد أطراف العلم فيناقشه طابته بكل حرية ويتناولون في الفصول الختلفة من دون التزام بكتاب واحد وإنما يستعرضون المذاهب في المسألة وينقدونها من جميع وجوهها على ضوء حرية الفكر ثم يرجحون ما يختارونه من الآراء، وهنا يقضى الطالب عدة سنوات حتى يدرك درجة الاجتهاد وهي ملكة يقتدر بها على استنباط أحكام الشرع الشريف من مصادرها، حينئذ يمتحنه بمجتهد عصره ليعطوه إجازة الاجتهاد وهي الشهادة العليا. وفي السنين الدراسية الأخيرة يتجه البعض إلى دراسة الكلام والفلسفة الاسلامية فيدرسون فيها (شرح المنظومة) للسبزواري و (شرح التجريد) للعلامة الحلبي و (شرح إشارات ابن سينا للخواجه نصير الدين الطوسي و (أسفار) ملاصدرا و (الشوارق) لسيد الرزاق اللاهجي و (الشفاء) لابن سينا. والحق أن جوامع النجف الأشرف تدرس الفلسفة الاسلامية بتوسع لا مزيد وراءه. كنت أدرس شرح إشارات ابن سينا لدى شيخ فارسي يدعى (الدامغانى) فكان يتمن في تدقيقه فلا يدرس في اليوم أكثر من نصف صفحة أو ربعها بالرغم من أن الدرس يستغرق ساعة أو أكثر وكنا نذهب إلى داره بعد الظهر بقليل وذلك في صيف النجف الأشرف تكليف شاق لا يطاق لشدة الحرارة في هذه البقعة الجافة. في هذه البلدة الجائمة على حدود الصحراء العربية الملهية بضرام حصاها ولا سيما أنى كنت أخرج من سراديب مدرسة السيد كاظم اليزدى التي تتوغل عميقة في الأرض حيث تفوح بك في مناخ بارد شتوى يضطرك إلى الالتجاف بما يقيك أذى البرد القارس. وربما يتذكر تلك السراديب الأستاذان الزيات وأحمد أمين ومحبهما فقد أنزلت الوفد إلى سراديب المدرسة وحملت له الصباح وجلتا في أحشاء هذا المههد العلمى. ولكم أعجبت تلك السراديب السياح فكتبوا عنها الكثير وهي ابتكار لطيف في التغلب على الطبيعة القاسية والتمرد على عذابها. ولكن أستاذى الدامغانى كان أفسى. فكم أجهداً في خوض معارك الفلاسفة الدامية يقذف بنا في حجيم الخصومة المنيفة بين الخواجه نصير الدين الطوسي وبين محمد بن عمر الخطيب الرازى وكل منهما شارح للإشارات، ولكنى ابتليت قبله بأستاذين درست عليهما الفلسفة